عش الحروف

د. شيرين الخطيب
باحثة بدار الكتب والوثائق القومية

قررت الحروف الهجائية أن تتخذ من شجرة ضخمة سكنًا لها، وعاشت الحروف سعيدة بحياتها مع الطبيعة فوق الأغصان إلى أن رأت حشرة صغيرة تعلمت منها تلك الحروف المجردة أن تتجمع ليكون لها معنى، ولتكوّن بذلك عددًا من الكلمات لا حصر له على اختلاف أجناسها من أسماء وأفعال وحروف.

ثم تناثرت الكلمات لتسكن أشجارًا أخرى قريبة حتى صارت هناك حديقة كاملة من الكلمات التى أزهرت ونمت لتتعلم نوعًا آخر من التواصل يفوق مستوى تواصل الحروف ويرتقى إلى تواصل الكلمات لتكون عبارات تصنع بها حكايات، وفكاهات، وقصصًا، وتستمر قصة الكتابة فى التطور على الحجر والجلد، وورق البردى، إلى أن اخترع الإنسان آلة الطباعة، وما عاد بإمكان الحروف أن تسكن فوق الشجر لكثرتها، فانتقلت إلى صفحات الكتب لتدوم وتبقى طويلا، وليتوارثها الأبناء والأحفاد.

وتحمل السلسلة عنوان "هيا نقرأ" وهو عنوان يوحى للطفل بقدر من الألفة التى تجمع الطفل القارئ مع الكاتب تحت لواء الجماعة، ويشير العنوان إلى القيمة التى تحاول كل قصص السلسلة تصديرها للطفل وهى قيمة القراءة، أما عنوان القصة "عش الحروف" فيحرك ذهن الطفل إلى تخيل الحروف طيورًا محلقة تبنى عشها فوق الأشجار. خلت كل قصص السلسلة من المقدمات، وبدأت بالدخول فى موضوع القصة دون أى تمهيد، على عكس ما نهجه المؤلف فى

سلاسله الأخرى سواء ما بدأ منها بمقدمة تكررت بالكامل فى كل قصص السلسلة مهما بلغ عددها مثل موسوعة علم البيئة، وعددها عشرون قصة أو ما بدأ بمقدمة تحمل روح الحوار والنقد وإشراك القارئ فى الفكرة موضوع القصة وإن تغيرت ألفاظها إلا أن معناها استمر يحمل نفس الدلالة فى كل قصص المجموعة مثل "حكايات غير شعبية" وعددها عشر قصص.

تمثلت الفكرة فى أهمية الكتابة والطباعة فى تخليد ميراث الأجداد للأحفاد، وهى فكرة وإن كانت تقليدية إلا أن الكاتب صاغها صياغة جديدة تحمل على التأمل والتخيل، وهى فكرة من الضرورى ترسيخها فى عقل الطفل، الذى يُعد أكثر الأعمار معايشة لتحولات الثورة التقنية المتمثلة فى الكتابة بالأزرار، والقراءة عبر صفحات إلكترونية متلاحقة، فلابد أن يعى الآليات التى حفظ بها أجداده المعرفة قبل دخول العالم عصر الثورة التكنولوجية، وقبل التفنن فى حفظ المعلومات والأفكار عبر بنوك المعلومات والذاكرات الآلية والأدمغة الإلكترونية والشبكات الرقمية. ومن خلال ملاحظة باقى عناصر البناء الفنى ـ ملاحظة عامة ـ يتضح أن الفكرة أهم ما تقوم عليه القصة يليها الأسلوب الذى يظهر بطرقه المختلفة متدرجًا من الحوار إلى الوصف وأخيرًا السرد.

ثم نجد الحبكة تنحو منحى العديد من قصص هذه المرحلة فى كتابات المؤلف حيث تفتقد وجود المشكلة أو الصراع أو العقدة التى تكون النهاية حلا لها، وتنهج منهج التدرج بمستويات الأسلوب وصولا بالشخصيات إلى حالة تختلف عن الحالة التى كانت عليها فى بداية القص سواء كان هذا الاختلاف اختلافًا شكليًا أو معنويًا، وغالبًا ما يأخذ الاختلاف شكل التطور السلوكى أو التطور الفكرى كما نلاحظ فى هذه القصة وفى قصص العديد من سلسلة "هيا نفكر"، بل يصاحب هذا التغيير فى معظم القصص تغير معنوى شعورى تجاه الحالة الجديدة كما يتضح فى هذه القصة. مع ملاحظة أن هذا التطور لا يعنى فى كل الأحيان تغير اتجاه التفكير تجاه قضية ما إلى العكس، بمعنى أن هذا التطور بمستوياته الثلاثة قد يحدث مع الشخصية الجاهزة "وجرت الحروف وقفزت لتتعلق بفروع الشجرة وأغصانها، واختار كل حرف لنفسه ورقة" ص ٤ (تغير سلوكى). "بدأت الحروف تتقافز من فوق الأوراق، ويتحد بعضها ببعض مكونة كلمات" ص ٩. (تغير سلوكى). "وإذا بها تتجمع لتصنع حكايات، وفكاهات، وقصصًا، وأصبح فى مقدورها أن تدير فيما بينها حوارًا.." ص ١٢. (تغير سلوكى). "وتكررت الحروف، وراحت تتقارب، وتغير من أماكنها وأوضاعها. مرة فى أول الكلمة، ومرة فى وسطها، ومرة فى آخرها" ص ١٠. (تغير سلوكى).

"ووجدت نفسها حين تجمعت معًا تشكل معنى، وتقول أشياء مفهومة". (تغير فكرى). "كان التفاهم كاملاً بين الكلمات بعضها وبعض.. ص ١٢". (تغير فكرى).

"ولم تشعر الحروف الهجائية بالملل وهى تحاول ابتكار كلمات جديدة" ص ١٠. (تغير شعورى). ".. وها هى ذى تمارسها فى فرحة وحب ص ١٢".(تغير شعورى). "ولو أنها بدأت تشعر بالمسئولية.. لأن هناك عبارات تؤلم، وأخرى تسبب الحزن أو الغضب، كما كانت هناك عبارات تشيع الراحة أو ترسم الابتسامة" ص ١٣ (تغير شعورى).

وربما قصد المؤلف عبر رصد التغيير الذى يطرأ على أبطال القصص تأكيد مستويات

التغيير ولفت نظر الطفل إلى مكوناته الثلاثة وهى المكون السلوكى، المكون الفكرى، المكون الشعورى، مما يؤدى بالطفل إلى ملاحظة هذه المستويات الثلاثة عند الإقدام على تغيير سلوكه ولو بشكل غير واعٍ.

إلا أن ما يؤخذ على المؤلف هو اتباع نفس ترتيب المكونات السابق فى معظم قصصه مما قد يوحى للطفل بأهمية الترتيب على هذا النحو فى الممارسة العملية، المكون السلوكى أولاً، ثم الفكرى، ثم الشعورى، إلا أن الأولى فى الترتيب حسب الأهمية، والأكثر ترسيخًا للتغيير، هو البداية بالمكون الفكرى ثم الشعورى، وأخيرًا السلوكى.

وتتنوع الشخصيات فمنها ما يظهر بشخصية البطل وهى الحروف الهجائية التى تدور القصة حول مدى أهمية تواصلها وبقائها، ومنها ما يظهر بمظهر الشخصية الثانوية (الحشرة الصغيرة) ولكنها ثانوية مساعدة للبطل بل محركة للأحداث، تظهر فى لقطات سريعة وتختفى لتوجه الحروف إلى طبيعة دورها وأهمية رسالتها، وقد ظهرت جميع الشخصيات كشخصيات جاهزة حيث انتهجت نفس طريقة التفكير والسلوك من أول القصة إلى آخرها، ولكن يؤخذ على الأبطال "الحروف الهجائية" تلك السلبية التى ظهرت فى انقيادهم لدروس الحشرة الصغيرة درسًا وراء الآخر دون أدنى محاولة ابتكار، خاصة أن هذه الدروس مترتبة بعضها على بعض، فكان من الممكن أن تصل الحروف بإعمال عقلها إلى محتوى الدرس الثالث وهو تكوين معانٍ تتجمع لتصبح حكايات وفكاهات، بعد أن كان الدرس الأول عن التشابك لتكوين كلمات، وكان الدرس الثانى عن تناثر الكلمات على العديد من الأشجار لتكوين حديقة كبيرة من الكلمات، حتى عندما أصبح لهذه الكلمات شعار لم يحدد الأسلوب مَن هو المبدع صاحب فكرته، أو صاحب حق اختيار كلماته ولكنه قال :

"وحاولت العبارات والجمل الحلوة أن تلتصق بالشفاه. وتخرج منها حلوة رقيقة، وصار شعارها : الكلمة الطيبة صدقة".

لم تفصح القصة عن زمان أو مكان إلا أنهما يظهران من خلال الفكرة والوصف، فمن خلال فكرة تواصل الحروف لتُكوِّن معانى انتقالاً إلى مراحل التدوين والطباعة يظهر أن الزمان هو الماضى، ومن خلال وصف جمال الطبيعة وتعلق الحروف بالأغصان يظهر أن معظم الأحداث تدور فى حديقة مملوءة بالأشجار حتى قرب انتهاء القصة حيث تنتقل الحروف لتحتل مكانًا آخر على أسطح الأحجار والجلود، إلى أن تستقر فى مكانها على الصفحات الورقية.

وواضح أنه رغم استشفاف طبيعة المكان والزمان أنهما غير محددين تحديدًا دقيقًا وهو ما يناسب الطبيعة الخيالية للحكاية؛ لأن البيئة غير واقعية مستوحاة من خيال المؤلف. واتسمت القصة بسمات أسلوبية كثيرة، فمن حيث الكلمات جاءت مألوفة لم يتخلل القصة أى كلمة غريبة على أطفال هذه المرحلة.

ولم تظهر كلمات متعددة المعنى، فى حين تكرر أكثر من لفظ للمعنى الواحد، أى ظهر عدد كبير من المترادفات مثل "بدون عد ولا حصر"، "قاموس أو معجم"، "فرحًا وابتهاجًا"، "تدوم وتبقى طويلا"، "تذيع وتنتشر"، "مبعثرة متناثرة".

تبادلت الجمل الاسمية والفعلية والإنشائية المواقع داخل القصة إلا أن الجملة الفعلية احتلت

مكان الصدارة بواقع ٢٤ جملة فعلية فى مقابل ٥ جمل إنشائية و٣ جمل اسمية فقط، مما أضفى على القصة صفة الحيوية خاصة أن الأفعال بعضها من قبيل "سارت، أعلن، جرت، تفرح، تبتهج، سألت، تناولت، بدأت، امتلأت، تواردت، جاءت، حاولت، رغبت، أرادوا.." ومعظمها تحمل دلالات إيجابية فى لفظها منفردًا، زادت تلك الإيجابية أو تشكلت فى بعض الأحيان داخل السياق فمثلا "حاولت" وإن كان معناه حياديًا إلا أن دخوله فى سياق إيجابى أضاف إلى اللفظ حيوية "وحاولت العبارات والجمل الحلوة أن تلتصق بالشفاه"، إلا أن الأسلوب من حيث طول الجملة ومكوناتها تميز بملاءمة المرحلة حيث وردت الجمل الطويلة التى تجذب الطفل بكلماتها السهلة لإكمالها مثل "إن الكلمات قد بدأت تُكَوِّن عبارات وجملا قصيرة، وطويلة.. لم يكن الأمر صعبًا، مع أنه لم يخطر فى بال الحروف والكلمات، ووجدت نفسها حين تجمعت معًا تشكل معنى، وتقول أشياء مفهومة"، ومثل "كان التفاهم كاملا بين الكلمات بعضها وبعض، وإذا بها تتجمع لتصنع حكايات وفكاهات، وقصصًا، وأصبح فى مقدورها أن تدير فيما بينها حوارًا، وأن تتعارف، وأن تتصادق.. إنها لعبة كانت غائبة عنها، وها هى ذى تمارسها فى فرحة وحب".

خلت القصة من الأخطاء النحوية والتراكيب الركيكة. من حيث التقديم والتأخير فقد وردت جملة واحدة "أما الربيع فهى تفرح به وتبتهج.." كذلك ورد العديد من الصيغ التعبيرية مثل التضاد فى "تسبب الحزن وترسم الابتسامة" ص ١٣، والصور الخيالية كما فى "حتى صارت هناك حديقة كاملة من الكلمات التى تواردت ونمت".

ارتكزت القصة على العديد من القيم الإبداعية، ويقف الخيال فى مقدمتها ففكرة تشخيص الحروف وحديثها إلى بعضها بحثًا عن سكن، وتلقى الدروس من الحشرة اللطيفة وصولاً إلى تشابك تلك الحروف لتكوين معانٍ، فكرة غير واقعية من تخيل المؤلف، أكمل تلك الصورة الخيالية حديث الحروف مع بعضها ومع الحشرة، وغياب الزمان والمكان المحددين، وتآلف تلك الحروف مع ظروف الطبيعة المتغيرة.

بالإضافة إلى مجموعة من الصور التى ظهرت بها للحروف أعين وفم وأقدام، وتعلق البعض الآخر على الأشجار فى صورة قلوب، وظهورهم فى صورة ثالثة على شكل حيوانات لها ذيول وأرجل طويلة يشبه بعضها البط، ويشبه بعضها البجع، هذا بالإضافة إلى ظهور الشعار أعلى الشجرة فى إحدى الصور كأنه ثمارها. ويتضح من تضافر العوامل التى تُبنى عليها الصورة الخيالية كم يظهر الخيال عميقًا، يستثير مشاركة الطفل العاطفية لنماذج السلوك التى تقوم القصة بتقديمها.

كذلك يُحسب للخيال فى هذه القصة عدم المبالغة على طريقة القصص الخرافية التى يحدث فيها أحداث تتضارب منطقيًا بعضها مع البعض، مما يساعد طفل هذه المرحلة على إثراء خياله وخصوبة تفكيره من ناحية، وعبوره للهوة بين عالمه الخيالى وواقعه من ناحية أخرى.

كما دعمت القصة قيمة الوعى بالزمن من خلال رصد تغيرات الطبيعة فى فصول السنة الأربعة مثل "وهى لا تخاف حرارة الشمس صيفًا"، "ولا يزعجها الشتاء"،"أما الربيع فهى تفرح به وتبتهج.." فجاءت هذه الجمل على بساطتها لتنقل الحروف ومعها الطفل القارىء إلى أزمان لها

مظاهر طبيعية مختلفة داخل القصة، كما ربطت بين الزمان والمكان، حينما جعلت التغيرات التى تطرأ على الأشجار، أو على الحديقة (المكان) هى مقياس تغير الزمان، ولكن يؤخذ على فكرة الزمن فى القصة أنها لم تتحدد بتحديد معنى التأثير والإنتاج، أو بمعنى أدق غياب مفهوم الزمن الداخل فى تكوين الفعل، أو فى تكوين القيم التى تشكل إطار الفعل، وكان من السهل إحداث هذا الربط إذا قامت الحروف بفعل ما يناسب كل فصل من فصول السنة، كأن تنسج فى الشتاء حكايات عن القطب الجنوبى، وفى الصيف حكايات عن البلاد القريبة من خط الاستواء، وفى الربيع عن أشهر حدائق العالم أو مصر.. أو ما شابه ذلك.

ودعم الأسلوب قيمة "استخدام المعرفة السابقة كقاعدة لأبنية جديدة" عندما استخدم تعبير "عاصفة تفوت ولا حرف يموت" ص ٥، فى مقامه التقليدى، أى أن المهم بعد وقوع الحدث الأول من المثل أن يكون الجميع أحياء، إلا إن ما جعل المثل أكثر تماسكًا وتعبيرًا عن السياق استبدال كلمة عاصفة بعلقة وحرف بحد، إذ أن أصل المثل "علقة تفوت ولا حد يموت" ولا شك أن استعمال المثل أو العبارات المعروفة له ردود فعل جمالية نظرًا لتأثيره فى نفس القارىء حيث تسترعى هذه الجمل انتباهه منذ لحظة تعرفه عليها. مما يطرح سؤالا منطقيًا : هل يتعرف طفل هذه المرحلة على الأمثال أو العبارات المتداولة بسهولة؟ وهل إذا لم يتم التعرف عليها سيثير جهله بها ردود فعل معاكسة غير إيجابية؟ والإجابة عن السؤال الأول تتوقف على صفات المرحلة من الناحية اللغوية حيث "يسيطر الطفل فى أواخر هذه المرحلة على المهارات القرائية الأساسية وفهم معانى الرموز اللغوية المقروءة ثم الاستجابة لما فيها واستخدام الأفكار المستخلصة من القراءة كلما ظهرت الحاجة إليها"(١).

فإما أن يعرف الطفل دلالة المثل أو القول، وإما تستثيره الكلمات المسجوعة أو الغريبة فيسأل عن مدلولها. فتتحول هذه البنيات اللغوية إلى علامات لها إحدى دلالتين دلالة على قيمة "استخدام المعرفة السابقة كقاعدة لأبنية جديدة" هذا فى حالة إذا كان المثل أو القول المسكوك معروفًا لدى الطفل، أو دلالة على قيمة "حب الاستطلاع فى حالة إذا كان المثل أو القول المسكوك غير معروف لدى الطفل.

ومن حيث الإخراج تُعد هذه السلسلة من أكثر السلاسل انضباطًا من الناحية الفنية، حيث أضفت الرسوم اليدوية على القصة عنصر التشويق، كما يتناسب نوع الرسوم من حيث تجريدها وخروجها عن الإطار الواقعى مع فكرة القصة، ومن حيث النسبة بين مساحة الصور بالنسبة للنص، زادت مساحة الكلام المكتوب على نسبة مساحة الصور زيادة طفيفة، فى حين ظهر مستوى دلالة الرسوم بمستوى قادر على توضيح الغرض، كما ظهرت الألوان كعناصر جذب، حيث استخدم الرسام الألوان الزاهية الأساسية مثل الأحمر والأخضر والأزرق، ونظرًا لسن المرحلة المقدم لها استخدم من الألوان غير الأساسية البنفسجى والبنى.

وقد ظهرت القصة بمستوى ممتاز من حيث الطباعة، القصة بالكامل ١٥ صفحة لا يوجد بها أى خطأ مطبعى، وشُكِّلَت حروفها بالكامل تشكيلا دقيقًا، وجاء قطع الكتاب من النوع المتوسط، على شكل مستطيل، وتمت الطباعة على ورق أبيض اللون من النوع الجيد مما ساعد الرسام على استخدام الألوان استخدامًا جيدًا.

طبعت قصص هذه السلسلة منفصلة لم يضمها مجلد واحد كمعظم السلاسل، ولم يتميز غلافها بتجليد قوى، إلا أن ارتفاع سن المرحلة المقدم لها القصة قد ينفى الاحتياج لهذا النوع من التجليد ولكن ما يؤخذ على الإخراج الفنى لهذه القصة هو بنط الكتابة حيث كُتبت الحروف ببنط ٢٤، وهو بنط أكبر بكثير مما يحتاج إليه طفل هذه المرحلة الذى يمكن التعامل معه من خلال أبناط ١٦، ١٨، ٢٠.

واتسمت السلسلة بالكامل سواء القصص التى رسمتها لمياء عبد الصاحب أو الأعداد الثلاثة التى رسمها سامر أسامة بسمات عامة مثل شكل الغلاف المتميز بخطوطه الطولية المتوازية، وكتابة اسم القصة بخط النسخ وكتابة رقم القصة فى السلسلة جهة اليسار، ورسم صورة تعبر عن مضمون القصة داخل إطار مربع وسط الصفحة إلى أسفل قليلا، كما تشابهت قصص السلسلة فى وجود إطار كهامش سفلى مختلف اللون ومتفق الشكل فى كل السلاسل، كما احتوت آخر صفحة لبعض القصص على صورة فقط دون كلمات، وجاءت الهوامش منضبطة فى صفحات الكتابة من كل جوانب الصفحة ٢.٥ سم.